المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الخامس عشر بعد المئة

١ اغسطس سنة ١٩٤٩ — ٨ شوال سنة ١٣٦٨

يوستنيانوس

والامبراطورية البيزنطية

٤ — يوستنيانوس والبابوية

كان أول عمل قام به « يوستنيانوس » عقب توليه الملك التفاهم مع البابوية واضطهاداً مريراً شاقاً أنزل بالوَحْدِيطَسِيين وبلاده وبلاياه. لقد أدرك « يوستنيانوس » بثاقب فكرته وألمعيته السياسية ، أن تعضيد البابا ضروري في استعادة الغرب من يد القوط. ولكنه بمجرد أن ثبت قواعد أقدامهم في أرض إيطاليا ، وملكوا زمام « روما » وضح بجلاء أن « يوستنيانوس » قد رمى إلى أن يكون السيد المطاع ، حتى في الشئون الكنسية.

في سنة ٥٣٧ من الميلاد عُزل البابا « سِلْفِريوس »[1] الذي كان للنفوذ القوطي أثرٌ في انتخابه ، وانتخب بدلاً منه البابا « وِيغِلْيوس »[2] مُرشح الامبراطورة « ثيودورا ». كذلك يعزى إليها أنها أقنعت الامبراطور بأن ينزل شيئاً ما عن قسوته إزاء الوَحْدِيطَسِيين ، وقد أخذوا يزدادون قوةً ونفوذاً برغم اضطهادهم. واتباعاً لنصيحة « ثيودورا » عمل « يوستنيانوس » على أن يكسب بعض تقتهم فأصدر مرسوماً امبراطوريًّا حَرَّم فيه بعض المؤلفات النسطورية[3] بالرغم من أن مجمع خلقيدونية[4] كان قد أجازها في سنة ٤٥١ ، ولما عارض البابا « ويغليوس » هذا المرسوم ، طردته الجيوش الامبراطورية من « روما » ، وساعد على ذلك أنه لم يكن محبوباً من أهل إيطاليا ، لسوء خلقه ،

(١) Silverius (٢) Vigilius (٣) Nestorian Works (٤) Chalcedon

إذ قتل أحد المسجّلين بلكمة من قبضة يده ، وأمر بابن أخته فضرب حتى الموت

نقل البابا في أول الأمر الى « صقلّية » ، ثم الى القسطنطينية ، حيث صنع به ماهيأه الى أن يذعن لأمر « يوستنيانوس » . غير أنه لم يلبث غير بعيد حتى عاد فتاب عن فعلته هذه ورجع عن خطيئته وقضى بقية الأعوام التي بقيت له في البابوية ، جاهداً في سبيل أن يتخلص من الموقف الذي ألقى بنفسه فيه ، بالأيمان المغلظة طوراً ، وبالاعترافات المكتوبة طوراً آخر .

ظلّ هذا البابا سجيناً في القسطنطينية زمناً مّا ، وهدّد باستعمال القسوة معه عندما هرب الى الإديرة يحتمي بها ، ثم نُفي أخيراً الى جزيرة صحراوية . ولقد أيد المجمع المسكوني الكلسي الخامس الذي عقد في القسطنطينية سنة ٥٥٣ في كنيسة « أيا صوفيا » الجديدة ، مسلك يوستنيانوس . أما رجال الكنيسة الذين أبدوا « ويجيليوس » تعرضوا بالرغم والسجن والنفي والإهانة . ولقد أذعن « ويجيليوس » في النهاية غير انه بفعلته هذه قد أزل من سلطان البابوية في الغرب وأضعف هيبتها ، فبدأ أسقف « ميلان » [1] وأسقف « أكيليا » [2] برميانه بخيانة الأرثوذكسية ، وبدأ عهداً طويلاً من الانقسام . وظلّ « يوستنيانوس » طوال البقية الباقية من حكمه حاكماً بأمره في انتخاب « البابوات » وفي شؤون الكنيسة بوجه عام .

على الجملة ، كان « يوستنيانوس » حاكماً مطلقاً في شؤون الدين وشؤون السياسة معاً ، وتصرّف على أنه الرئيس الأعلى للكنيسة النصرانية . غير انه الى جانب هذا كان جادّاً في تنمية المرافق النصرانية . وفي أن يعيد الى الأسبراطورية الرومانية قوتها وسلطانها . فكان كريماً سخيّاً اذا وهب الكنائس والأديرة ، حتى في تشجيع البعثات التبشيرية الى الهمج ، قاسياً كل القسوة في معاقبة الزنديق والهراطقة [3] .

ولكن مما يؤاخذ به أنه أغلق مدارس الفلسفة في أثينا ، وصادر هباتها حتى الهبات التي كانت تعطى لأقاديمية « أفلاطون » ، [4] ومنع عنها الموارد التي كانت ايراداتها تزود الأساتذة بمرتباتهم ، فقصروا الى البلاط الفارسي .

(١) Milan (٢) Aquileia (٣) Heretics (٤) Plato

ولقد ظلّ « يوستنيانوس » ، حتى بعد أن بلغ الهرم ، وبعد أن فقد كل شهوة للحرب والنظر في تفاصيل الدفاع عن الامبراطورية ، تلك التي استغرقت كل همته واستوعبت كل انتباهه من قبل ، محبًّا للاشتراك في الجدل اللاهوتي ، نازعاً الى العمل على أن يجعل شعبه موحّد الإيمان ، موحّد العقيدة .

لقد أبان عراك « يوستنيانوس » مع البابا عن حقيقة تلك الصعوبة التي تنطوي على ضمّ شطري العالم النصراني ، في الشرق والغرب ، تحت سلطان كنيسة واحدة . ولقد قدر بعض الباحثين أن « القسطنطينية » ظلت في شقاق ديني مع روما نصف الزمن الذي انقضى من سنة ٣٣٧ الى سنة ٨٧٨ من الميلاد . فان المجلس الثامن والأخير الذي عقد في الشرق وقبلت « روما » أن يكون مجلساً مسكونيًّا قد شهدته القسطنطينية في سنة ٨٦٩ ، أما الانقسام النهائي فلم يحدث الاّ سنة ١٠٥٤ ولكن الواقع أنه لم تقم وحدة صحيحة ، قبل أن يحل ذلك الانقسام بعهد طويل . ومنذ ذلك الوقت ، وبالرغم من محاولات رمت الى التوحيد ، ظلّ كنائسة الرومان منفصلين عن كنائسة اليونان ، وعن نصارى الروس

٥ — استعادة شمال افريقية

حكم « الوندل » ملك ضعيف من سنة ٥٢٣ الى سنة ٥٣٠ ، هو الملك « هلدريق » [١] وكان أميل الى الكاثلكة الأورثوذكسي منه الى الآريين ، ومضى على صداقته ليوستنيانوس معترفاً بسيادته الاسمية . ولما تذمر الوندل عزلوه وأمّروا الملك « غليمر » مكانه ، سنحت ليوستنيانوس فرصة للتدخل في الأمر . ولقد استطاع القائد « بليزاريوس » على رأس جيش عدّته عشرون الف جندي ، أكثرهم من « الفرسان المصفحين » [٢] أن يهزم الوندل وشيكاً في موقعتين ، وسلّم « غليمر » سنة ٥٣٤ ، كذلك سلمت جزائر سردينيا وكورسيكا والبليار لقواد « يوستنيانوس » واستردّت الأهلاب التي أخذت من « روما » في سنة ٤٥٥ ذلك في حين أن البربر الذين كانوا معينين في استرداد أراضيهم من الوندل ، قد مضوا يقاومون بعناد شديد مدى أربعة عشر عاماً بعد ذلك التاريخ . وفي الحق ان « يوستنيانوس » لم يستطع أن يغزو كثيراً من أرض « موريطانيا » [٣] وهي أمعن بقاع شمال افريقية امتداداً نحو الغرب ، وتعرف الآن ببلاد مراكش ، غير انه كان مستولياً على « سبته » [٤] تلك القلعة

(1) Hilderic (2) Cataphracti = heavy-mailed cavalry. (3) Mauretania (4) Ceuta

الحصينة التي تقوم حارسة على بوغاز جبل طارق . ولقد خص تخوم البلاد التي وقعت تحت سلطانه وأصبحت في حوزته ، فاستنفد ذلك كثيراً من الجهد والنصب ، لأن « الوندل » هدموا جميع التحصينات الأولى ما عدا قلاع « قرطاجة » .[1] على إننا نرى الآن من خرائب تلك القلاع ما يوحي إلينا بضخامة ذلك العمل الفذ .

قاست الولايات الافريقية كثيراً من المحن والارتماق في خلال الصراع مع البربر ذوي العناد والقوة ، كما أرهقها ثقل الضرائب التي كان يفرضها عمال « يوستنيانوس » . وإنا لنستنتج شيئاً عن عدد الأنفس في شمالي افريقية من عبارة وردت في كتاب « التاريخ السري » لفروقوفيوس ، اذ ذكر ، مما لا يخلو من مبالغة ومغالاة ، ان ستة ملايين من الأنفس طاح بها القتل في أثناء تلك المغزاة ، مضافاً الى ذلك عدداً ضخماً من هيئة الموظفين الذين عملوا في حكم ذلك الاقليم . وكان على رأسهم « الحاكم البريتوري »[2] وقد عرف فيما بعد باسم « الاكسرخ » أي الحاكم الأعلى »[3] وكان يتقاضى مرتباً ضخماً يزيد على مرتب بقية الموظفين مجتمعين . ومن تحته ادارة كاملة بها أربعمئة موظف ، ثم ستة حكام تحت كل واحد منهم خمسين مساعداً ، ثم ستة دوقين[4] مع كل منهم أربعين كاتباً ، عهد إليهم بأعمال التحرم وصيانتها ، فالمجموع ألف موظف . ولقد عمل « يوستنيانوس » على أن تسترد أفريقية البوزنطية رخاءها ، وروّد قرطاجة بعدد من الأبنية الجديدة .

٦ — استعادة إيطاليا

عندما شنّ « يوستنيانوس » حربه مع الوندل[5] كانت مملكة القوط الشرقيين[6] في إيطاليا يحكمها ملك حدث ، وكانت أمه حسنة النية من ناحية « يوستنيانوس » ومما به ثقة ، فسمحت للقائد « بليزاريوس » أن يتخذ من صقلية قاعدة يدير منها العمليات الحربية على أفريقية . ولقد أصبح أيها موضعاً . احتقار رؤساء القوط لأنه كان يبكي اذا

---

(١) Carthage : يخطئ بعض المترجمين فيخلطون بين قرطاجنة وقرطاجة : فالأولى هي المدينة القديمة في شمال أفريقية ، أما الثانية فمدينة أقامها القرطاجيون على ساحل اسبانيا الشرقي وسموها قرطاجنة أو قرطاجنة الصغيرة : والاولى ترسم Carthage والثانية Cartagena

(٢) Praetorian prefect (٣) Exarch

(٤) دوقات : جمع دوق dukes

(٥) Vandals (٦) Ostrogothe

ضربه أستاذه بالسوط . ولكن هذه الطريقة الخشنة التي اتبعت في تنشئته ، قد أحدثت فيه صفات مضادة للصفات التي ظنّ أن هذه التربية قد تغرسها فيه ، فنشأ صلباً قاسياً ، ولقد أودت بحياته شروره ومباذله وشهواناته ، بعد أشهر قليلة من انتصار « بليزاريوس » على الوندل وتسليمهم له .

نجحت الملكة الأم في التزوج من ابن خالها وكان أول من له الحق في العرش بعد موت ابنها ، ولكنه أغرى بها ، فقتلت طعناً بالخناجر . فانتهز « يوستنيانوس » هذه الفرصة لإعلان الحرب ، إذ كان يعد هذه الملكة من أحلافه .

كان « يوستنيانوس » بسياسته اللبقة الكيسة ، قد استطاع أن يغري الفرنجة [1] بغزو « بروفانس » وشمالي إيطاليا ، فأخذ الفرنجة عندما بدأ « بليزاريوس » مغازاته الايطالية يساعدونه ويمدونه بالمون . وشدّ « يوستنيانوس » أزر « بليزاريوس » بقائد بوزنطي آخر غزا « دلماشيا » ، ولكنّ « يوستنيانوس » أرسل في إثره القائد « نارسس » بجيش آخر ليعرقل تقدمه ويتجسس عليه ، فانتصرت جيوش بوزنطية عدة انتصارات متوالية بين سنتي ٥٣٥ و٥٤٠ انتهت بتسليم رافنّا [2] .

غير أن القوط تحت إمرة ملك جديد إسمه « طوطيلا » [3] جددوا الحرب ، ولم تحل سنة ٥٥١ حتى كانوا قد استعادوا معظم إيطاليا واحتوا صقلية [4] وسردينيا [5] وكورسيكا [6] وفي النهاية استطاع الشيخ « نارسس » ذلك القائد المحنك أن يهزم الملك طوطيلا ويقتله في سنة ٥٥٢ ، وفي سنة ٥٥٥ اضمحلت قوى القوط ، وطرد الفرنجة والالمان [7] من إيطاليا وكانوا انتهزوا فرصة تلك الأحداث وما جرت من فوضى ، فأخذوا يعيثون في أرض الرومان فساداً . ولكن الى جانب هذا فقدت الامبراطورية « رايطيا » [8] و « نوريقوم [9] و « بانونيا » [10] . وفي سنة ٥٦٨ بدأ « اللومارديون » [11] غزواتهم الناجحة ووطدوا أقدامهم توطيداً جزئياً في ايطاليا .

لم يدر في خلد « يوستنيانوس » أن يعيد الى الوجود الامبراطورية الغربية ، ويضع

---

(١) Franks (٢) Ravenna (٣) Toula (٤) Sicily

(٥) Sardinia (٦) Corsica (٧) Alemanni (٨) Noricum (٩) Rhaetia (١٠) Pannonia (١١) Lombards

لها امبراطوراً . فان ايطاليا ، كافريقية ، حكمها نائب امبراطوري تحت سلطان القسطنطينية وانتهى بذلك عهد السناتو الروماني [١] .

غير ان « نائبيّة » « رافنا » بالرغم من انها انكمشت وقلّت ، فانها ظلت موجودة زمناً طويلاً بعد دخول اللومبارديين إيطاليا . أما « رانّا » نفسها فلم تسقط الاّ في سنة ٧٥١ ، وظلت الامبراطورية البوزنطية مستولية على صقلية وأجزاء من جنوبي إيطاليا ، وغير ذلك من المراقع المتناثرة على الشاطئ ، مثل البندقية [٣] حتى القرنين العاشر والحادي عشر

كذلك ملك « يوستنيانوس » جزءاً ساحليّاً من جنوب شرقي اسبانيا ، اذ استنجد به أحد الادعياء ليساعده على الملك الآريّ الذي كان يضطهد رعاياه الكاثوليك . ومع الزمن رجع هذا الاقليم شيئاً فشيئاً الى القوط الغربيين [٤] . غير أن « يوستنيانوس » قد نجح في أن يضم شطآن البحر المتوسط الى الامبراطورية ويظلها بسلطانه ، واتخذ بانتصارات قواده ألقاباً فخمة رنانة مثل أفريقانوس ، [٥] ونداليقوس ، [٦] قوتيقوس ، [٧] المانيقوس [٨] فرنجيقوس ، [٩] جرمانيقوس [١٠] .

٧ — يوستنيانوس والهمج

كانت شبه جزيرة البلقان شرقي دلماشيا وبنّونيا ، جزءاً من الأرض التابعة للامبراطور « يوستنيانوس » وتحت سيادته . غير أن سيادته عليها كانت إسمية ، لأن الهمج كانوا يجتاحونها المرّة بعد المرة ، تبعاً لاراداتهم ومتى شاؤا . فأخذ يحصن ذلك الاقليم الممتد من الدانوب الى بحر « مرمرة » [١١] بخطوط من القلاع القوية ، وأحيا في ذلك الاقليم ، وفي جميع الأقاليم الامبراطورية ، النظام الروماني القديم ، في أن يعهد بحماية الحدود الى جنود من أهل ذلك الإقليم ، يقيمون في أرض تقطع إليهم محاذية لتخوم المملكة . كذلك دربت جيوش « بليزاريوس » و « نارسس » وجهزت بجند من الهمج الأجانب عن الامبراطورية . وكان أكثر اعتماد « يوستنيانوس » على سياسة رشيدة وصبغة اتبعها

---

(١) Vandalicus (٢) Africanus (٣) Visigoths (٤) Venice (٥) Exarchate (٦) Roman Senate
(٧) Marmora (٨) Germanicus (٩) Francicus (١٠) Almannicus (١١) Gothicus

إزاء الهمج المحيطين ببوزنطية . ولقد رأينا طرفاً من هذه السياسة الماهرة في أن يتخذ من البيوت الحاكمة في أفريقية وإيطاليا وأسبانيا أصدقاء ، ثم ما يلبث أن ينتحل الأسباب لغزو بلادهم . كذلك استطاع أن يبهر سفراء القبائل الهمجية التي كانت تعيش إزاء تخومه بفخامة بلاطه وأبهته إذا ما هبطوا القسطنطينية ، وأنعم على ملوكهم بالهدايا والهبات والألقاب . غير انه الى جانب هذا كان يغري بعضهم ببعض ، فيظلون في شغل عنه بأنفسهم ، بعيدين عن التفكير في غزو أقاليمه . ولقد امتدت محالفاته الى أثيوبيا والحبشة وأعالي النيل . على أن هذه السياسة كانت كثيرة النفقات ، لأن الهمج لا يأتمرون بأمره من غير منح ينالونها ، وهبات يتلقونها منه .

* * *

كانت العقبة الكبرى التي وقفت في سبيل « يوستنيانوس » ومشروعاته الكبرى في تنمية الامبراطورية وتقويتها ، عداء المملكة الفارسية [1] التي كانت تهدد تخومه الشرقية ، فان الحروب التي وقعت بين بوزنطية وفارس ، ولم يكن هو من جناتها ، والتي ظلت قائمة بين ٥٢٤ و ٥٣٢ ؛ ثم من ٥٤٠ الى ٥٤٥ ؛ ثم من ٥٤٩ الى ٥٦٢ قد انتهت بأذعان الامبراطورية البوزنطية وقبولها دفع جزية سنوية لفارس . ولقد اضطر في أثناء هذه الحروب أن يسحب كثيراً من الجنود من النخوم الشمالية ليباشر حروبه مع فارس ويواجه مطلوبات سفاريه الطويلة في أفريقية وإيطاليا ، حتى أن قبائل الهون [2] والسلاف [3] والبلغار [4] قد استطاعوا أن يهاجموا تخومه عبر الدانوب بمعدل مرة في كل أربع سنوات طوال حكمه . وكانوا في النهاية يردون على أعقابهم ، غير أنهم استطاعوا في احدى غاراتهم أن يصلوا برزخ « قورنثوس » [5] أو مشارف القسطنطينية . ولقد توج « بليزاريوس » أعماله في شيخوخته ، برد غارة شنها الهون في سنة ٥٥٨ ؟

البلغار الأصلاء قومٌ بدو رعاة كالهون [6] . وقد تبعوا الهون الى منحدرات

---

(١) Kingdom of Persia (٢) Huns (٣) Slavs (٤) Bulgars

(٥) Isthmus of Corinth (٦) Huns

« فونطوس » [1] في زمان متأخر عن مقدم الهون بعض الشيء . ولقد كان أول ظهورهم في جنوب الدانوب حوالى نهاية القرن الخامس الميلادي . وكما فعل الهون قبل مئة سنة إذ غزوا القبائل الجرمانية وكسحوا قبائل أخر الى حاجز الامبراطورية الرومانية ، كذلك فعل البلغار خلوا السلاف على أن يرافقوهم في غارات كثيرة عبر الدانوب . وبالرغم من أن البلغار كانوا السادة والأمراء ، فانهم انتحلوا لغة السلاف وعاداتهم ، وانصهروا فيهم فأصبحوا الأمة البلغارية التي نعرفها اليوم .

* * *

أما تاريخ قبائل السلاف الأول فغير محقق ، يكتنفه الشك وتحف به الريب . وهم يعتبرون سلالة ألبية [2] وأقرب الاجيال إليهم دماً هم الكلت [3] على ما يظهر ، ويتكلمون لغات من المجموعة « الانديوروبية » [4] ، وهم يتضمنون الأسط [5] والليتوان [6] ما أهلهم بقربة من بحر البلطيق ، ثم روساً وسلافاً ما أهلهم في جنوبي نهر الدانوب .

وقبل التاريخ الميلادي بمدة قرون ، دفعهم الجرمان الى ما بعد نهر « الفستولا » [7] ولكن في القرون الأولى من العصر الميلادي تكاثر السلاف بسرعة على ما يظهر وانتشروا انتشاراً مروعاً في شرقي أوربا . وكانوا فلاحين من الزراع ، غير أنهم أقل من الجرمان كما يظهر من حيث غذاؤهم النباتي وحاجتهم الى الحيوانات الداجنة التي تساعدهم على أعمالهم وتخفف عنهم شيئاً من جهدهم البدني . ولم تتنشأ فيهم النظامات الاجتماعية والسياسية إلا قليلاً ، والى جانب أنهم رحماء مقتصدين ممارسين للمشقات كانوا قليلي الابتكار بعيدين عن الاهتداء ، وأكثر ميلاً الى الموسيقى منهم الى صناعة الحرب . ولقد ارتد كثير منهم فلاحين مسودين يعملون تحت سلطان البدو الذين هبطوا من الشرق ، ولكن بعضهم قد تعلم من غزاته الجلاد والغارات فأصبحوا بدورهم غزاة عند ما ترك القوط

---

(١) Pontus Steppe (٢) Alpine Race (٣) Celts
(٤) Indo-European (٥) Letts (٦) Lithuani ns (٧) Vistula

الشرقيون شبه جزيرة البلقان حرّة ليحل محلهم فيها غزاة ومغيرون جدد . ولقد تكلم « فروقوبيوس »[١] خاصة عن السلاف في بارابيا[٢] ومولدافيا[٣] وولاشيا[٤]

تلقاء نهاية حكم « يوستنيانوس » وقع في عالم الهمج انقلابان كبيران . فان الهون البيض أو « الافتاليون »[٥] وهم قبيلة همجية من حوض نهر جيحون[٦] وراء مملكة فارس كانوا شوكة في جنب تلك المملكة طوال الزمن الذي عاشت فيه الامبراطورية البوزنطية. هزمهم الاتراك وبددوا سلطانهم ، أولئك هم الاتراك الذين أراد القدر أن يلعبوا على مسرح التاريخ الاوربي دوراً ذا شأن عظيم . وفي نفس الوقت أخذ مد عظيم من موجات البدو الاسيويين ، وهم قبائل « الآفار » ينحدر نحو الغرب . ولقد منحهم « يوستنيانوس » في أخريات أيامه جزية سنوية مكافأة لهم على هزيمة البلغار والسلاف الذين كانوا يهددون تخومه وينتهكون حرمتها . وبعد موت « يوستنيانوس » بقليل حاربوا تحت امرة خانهم « بايان » مع الفرنجة في « ثورنجيا »[٧] ثم وجدوا قومهم مع اللومبارديين[٨] ليهزموا قبائل آل « غيبيدا »[٩] في أعالي الدانوب . ومن ثمت انقض اللومبارديون من شرقي على ايطاليا . بينما استباح « الآفار » أرض « الغيبيد » وتوطنوا السهل الذي هو الآن « هنغاريا » . وسرعان ما أخذوا يفرضون سلطانهم الاستبدادي المطلق على أقاليم أوسع وأشمل ، لان الجرمان نشرهم غرباً وجنوباً ، قد أباحوا أواسط أوربا لمن يتقدم لاستعمارها . وفي خلال ما تبقى من القرن السادس ، اعتاد « الآفار » أن يستقروا بجوار مدينة « نورنبرج »[١٠] الحديثة في شمالي بافاريا . أما نفوذهم في أقصى عنفوانه ، فقد امتد على الأرجح من بحر الطبق الى إسبارطة[١١] ، ومن التيرول[١٢] الى روسيا ، وأخذت قوتهم في التضاؤل عند القرن الثامن .

اسماعيل مظهر

---

(١) Procopius (٢) Bessarabia (٣) Moldavia (٤) Wallachia

(٥) Ephthalite (٦) Oxus Cramich's p. 639 (٧) Avars (٨) Lombards

(٩) Gepidae (١٠) Nürnberg (١١) Sparta (١٢) Tyrol